الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة

فى حديث مضى تناولت الكلام عن الإصلاح الاجتماعى والقوانين ، ولا غرابة فى اقتران الإصلاح بالقانون . فإننا نسمع منذ القدم عن قوانين الإصلاح كما نسمع عن إصلاح القانون . فلا يستغرب السامع أن يقترنا فى موضوع واحد . أيًّا كان رأيه فى انتفاع المجتمعات بإصلاحات التشريع .

لكننا نتكلم عن الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة وغيره من الأشياء . وهو اقتران غريب فى أذن كل سامع . وغريب أيضا فى أذنى حين سمعته ، ولهذا استحق لغرابته أن يكون موضوع حديث .

إن العلاقة بين الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة بعيدة جدًّا فى رأى الأكثرين ، أو غير موجودة على الإطلاق فى رأى آخرين . ولكن الإصلاح الاجتماعى باب يطرقه كل إنسان ، فلا عجب أن يختلط به بعض العجب ... لأن العجائب فى أخلاق الناس ، وفى تفكيرهم ، ليست من نوادر الأمور .

ومن الواجب أن أبادر إلى استدراك لازم فى هذا المقام ، وهو أننى لا أعنى بأصحاب العجائب أنهم قوم من الهمل

أو النكرات ، أو الذين لا يعول لهم على رأى أو كلام . فإننى لاأروى فى هذا الحديث شيئًا عن واحد من هؤلاء ، ولا أتجاوز طبقة الخاصة المعدودة فى هذه المذاهب الإصلاحية ، وفى مقدمتها مذهب رباط الرقبة على الخصوص .

فيجب أن نعلم مثلاً أن رجلاً من الخاصة المعدودين يربط بين الأمرين هذا الرباط الوثيق ، ويعتقد أن البحث فى هذه المسألة أولى من البحث فى تعديل البرامج المدرسية أو تعديل الدستور وقانون الانتخاب . ويتكلم الناس عن نظام العمل فى الدواوين فيصيح بهم مستنكرًا غفلتهم عن السر الدفين : كيف ينتظم عمل من الأعمال ورباط الرقبة يباع اليوم بأربعة جنيهات ؟

قال ذلك ولا حاجة بى إلى سرد التعليقات التى قوبل بها هذا السؤال ، ففى مصر – بلد النكتة والقافية – لا تبقى كلمة من كلمات الربط أو العلاقة أو الفتق أو الخناق إلا انهالت على السائل ، بعد الاعتذار بحكم القافية .. وهو حكم نافذ القضاء .

وقد أفرغ السامعون جعبتهم وسمحوا لصاحبنا بلحظات من الوقت يشرح بها مذهبه فى الإصلاح . فعاد متسائلاً وقال : أتنتظرون من رجل يلبس رباطًا للرقبة ، بأربعة جنيهات ، أن يهين نفسه فى العمل أو يلتفت إلى شىء غير الأناقة وحسن الهندام ؟ أتظنون أن الموظف الصغير يعف عن الكسب الحرام إذا رأى مثل ذلك الرباط فى عنق رئيسه وطمع فى محاكاته ؟ وماذا

على الحكومة لو أنها أصدرت أوامرها بإلغاء هذا الرباط وحرمت على موظفيها أن يلبسوه ؟ أليس هذا أنفع لها من البحث فى الدرجات ومشروعات الإنصاف أو من الاستغناء عن طائفة من الموظفين ؟

والظريف فى الأمر أن السخرية التى انهالت على هذا المصلح الغيور لم تعلم أحدًا من السامعين كيف يتقيها فى لمحة عين . فإن الساخر الذى كان أشد السامعين سخرية بصاحبنا لم يلبث أن أصيب بعدواه وألقى بدلوه فى الدلاء . فقال وهو يتخذ هيئة الجد كأنه يهيئ الأذهان للانتقال من المزاح إلى القول المفيد : كلا . كلا إن رباط الرقبة و « شرابة الخرج » فى مسألة الإصلاح سواء . ولكنى أخبركم بالشىء الذى يجب على الحكومة أن تمنعه كل المنع ، فتعمر البيوت وتنقطع شأفة الفساد : يجب على الحكومة أن تمنع أحمر الشفاه وقلم الحواجب ، ثم انظروا كيف تنصلح الأخلاق وتأمن الأسر غائلة الفتنة وأسباب الفراق والطلاق ؟

وأخذ المصلح الجديد نصيبه من القافية التى لا ترحم ولا تعذر ، ثم سمح له بالشرح كما سمح به لزميله من قبل فقال :

نعم يتوقف الشىء الكثير من صلاح البيوت على تحريم أحمر الشفاه وقلم الحواجب ، لأن المرأة تهتم بالتخطيط والتلوين من

أجل الشارع لا من أجل البيت ، وتريد إذا تزينت أن يراها الناس ولا يهمها أن يراها الزوج أو من يعيشون معها فى بيت واحد . لأنهم يرونها بغير زينة ولاطلاء فى كل صباح ومساء .

وماذا تنتظر من امرأة تتزين للأعين الغريبة وتخرج إلى الطريق مترقبة للاستحسان ، وما يتبعه من كلمات الثناء والإغراء ؟ .. أليس هذا هو باب الشر وباب الشك وسوء النية وما وراءه من الخلاف والطلاق ؟

ويظهر أن المصلح الجديد قد فكر طويلاً فى مذهبه ودرسه من جميع أطرافه ، لأنه استطرد من ذلك إلى التفرقة بين الماضى والحاضر فى عصر الحجاب وعصر السفور . فقال إن المرأة كانت قليلة الخروج يوم كانت مبرقعة ضافية الثياب ولم تكن تهتم بغير الكحل لأن البراقع لا تستر العينين . فلما انكشفت الخدود والشفاه وانحسرت الثياب عن المعاصم والسيقان زاد الاهتمام بالشارع وقل الاهتمام بالبيت ، ولو بدأنا بتحريم الطلاء على ألوانه لاستغنينا شيئًا فشيئًا عن تحريم ما عداه من المحظورات والمغريات .

والحق أننا نظلم مصلح الطلاء إذا سوينا بينه وبين مصلح « الكرافته » . لأن كلامه لا يخلو من بعض الحق وبعض العبرة . فلا جمال فى الطلاء ولا فائدة . وإذا كان فيه جمال فى بعض الأنظار فهو جمال على الوجه أو جمال قشرة . وخير منه

أن تسفر الوجوه عن بشرتها الطبيعية فتتعود المرأة تحسين منظرها بتحسين صحتها واكتساب ألوان النضرة والرواء بالرياضة الحسنة والغذاء الصالح والبساطة فى المعيشة . ولكن الجانب الضعيف فى مذهب هذا المصلح - مصلح الطلاء - هو اعتقاده أن منع الأحمر والأسود يقعد النساء فى البيوت ويجنبهن الخروج إلى الطريق . فهو ظن لا يسوغه الواقع المشاهد فى كل مكان . لأن الدميمات يملأن الطرقات ولا ضير على المليحات الفاتنات أن يبرزن للأنظار بغير طلاء .

على أن مذهب « الكرافته » نفسه لا يخلو من وجهة نظر مقبولة ... فكثيرًا ما يخطر على الأفكار وعلى الألسنة هذا السؤال : لماذا يعلق الناس بأعناقهم هذه الفضلة التى لا تجمعها بأجزاء الكساء جامعة معقولة ؟ ولماذا لا يستغنون عنها أو يستبدلون بها نوعًا من الزينة التى لا تنادى على نفسها بأنها « زينة » فقط ، وأنها زينة بغير معنى ؟ ولا شك أن الناس يتحولون عنها شيئًا فشيئًا فى ملابس الصيف أو فى الملابس الرياضية ، ومن استبقاها فإنما يستبقيها لأنه يتعرض بخلعها للانتقاد والاتهام بالشذوذ وحب الإغراب . لا لأنه يعرف للبسها معنى يرتضيه .

وأذكر من طرائف هذه الفضيلة الفضولية محاورة بين زعيم سياسى من الأطباء وبين زوجته الذكية ، وهما يتجادلان فى

سوابق الاستعباد بين جنس آدم وجنس حواء . فقال إن الاستعباد قديم فى جنس حواء بدليل الأساور فى اليدين ، وهى بقية الأغلال والسلاسل .. وقالت : إنه هو قديم فى جنس آدم بدليل الرباط فى الأعناق ، فهو بقية الحبل الذى كان يقاد به قديماً فينقاد !

وهكذا تصبح الدعوة إلى خلع « الكرافتة » دعوة إلى الحرية والقضاء على بقية الاستعباد ورمز الخضوع والانقياد ، ويوجد للإصلاح الاجتماعى الذى يقوم على خلعها سبب وجيه لم يكن لأصحابه فى الحسبان .

ولم تنته مذاهب المصلحين فى تلك الجلسة بمنع رباط الرقبة ومنع الطلاء . بل أضيف إليهما منع آخر هو منع التبغ والقهوة والشاى . فإن تحريمها – والعهدة على صاحب الرأى – ألزم من تحريم الخمر والمخدرات . لأن الناس يتعاطون الخمر فى أوقات ويحسبون من المرضى إذا أفرطوا فى تعاطيها إلى درجة الإدمان . أما التبغ والقهوة والشاى فهى عادة دائمة تلازم المرء طول نهاره وساعات اليقظة من ليله ، وتجعله كالآلة التى أكلها الصدأ فهى فى حاجة إلى الترتيب والتنبيه ، بعد أن كان الإنسان فى العصور الغابرة قادرًا على العمل المتواصل بغير حاجة إلى هذه المنبهات .

* * *

إننا لا نحصى مذاهب الإصلاح الاجتماعى التى من هذا

القبيل ، ولكنا نشير إلى أمثلة منها تذكر المستمعين بما حضروه من أحاديثها ، وهى تتفاوت فى الذيوع والتكرار . فمنها ما يسمع فى كل بيئة ، ومنها ما يسمع فى بيئة دون أخرى ، ولعلى أتهم بالنسيان إذا لم أختمها بمثل واحد هو على التحقيق أشيعها وأروجها فى أكثر البيئات ... وهو مذهب التليفون : أعنى إلغاء التليفون ، أو إقامة الرقابة على التليفون ، لأنه وسيلة سهلة للقيل والقال والوشاية والاتصال ، وقد سمعته مرات بعد مرات ، وسمعته بالتليفون كما سمعته بالأذن المجردة ... فهو أشيع ما قيل فى مذاهب الإصلاح من هذا القبيل ، وهو كذلك أغرب ما قيل ! .

* * *

وخلاصة هذا كله تنتهى بنا إلى نتيجتين لا تضيع فى تحصيلها الدقائق المعدودات :

أولى النتيجتين أن الناس يستسهلون الإصلاح بالمنع والتحريم ولا يفكرون كثيرًا فى الإصلاح بالعمل والإنشاء ، فإذا استمعت إلى مائة يتعرضون لهذا الموضوع فقد تسمع تسعين منهم يمنعون هذا ويحرمون ذاك ، قبل أن تسمع منهم من يوصى بعمل أو يعمد إلى بناء ، وهذه بقية من بقايا الحجر على الطبائع والعقول لا ننجو منها كل النجاة إلا إذا تعودنا أن نفهم الخير فهم الراشدين ، الذين يعملون غير مأمورين ولا مكرهين .

أما النتيجة الثانية فهى أدعى إلى التسلية والراحة . لأنها تخفف عنا شيئًا من أعباء الحياة ، وترينا أن الجد الخالص فى هذه الدنيا مستحيل ، وأن الهم فى كبار الأمور وصغارها لا يخلو من جانب فكاهة وجانب ابتسام . فلو تكلم أخلاط من الناس فى الموت نفسه لسمعت منهم ما يضحك الحزين ويخف محمله على العقول ، وقد رأينا كيف يضحكون ويضحكون وهم يتناولون عيوب الأمم ومذاهب الإصلاح . ونعم الموضوع موضوع مبارك يطرفنا بالتسلية إن لم ينفعنا بالموعظة الحسنة والنصيحة الجدية . فلا نخطئ التشبيه إذا قلنا إن مذاهب الإصلاح كورقة النصيب الخيرى : إن أصابت فهى ثروة وإن أخطأت فهى إحسان .